مسرح الحلقة

أو عودة الحكواتي إلى المسرح الجزائري

د. إدريس قرقوة

جامعة الجيلالي اليابس

تجارب مسرحية كثيرة خاضها الرواد الأوائل في المسرح الجزائري من خلال توظيف التراث العربي والشعبي، مستلهمين عناصره وأشكاله التعبيرية، محاولين التقرب أكثر من جمهور المتلقين أو البحث عن سبل تأصيل الفن المسرحي، ومن أبرز التجارب المسرحية الجزائرية تجربة المسرحي الراحل عبد القادر علولة في ثلاثيته المسرحية المعروفة (الأقوال، الأجواد واللثام). تجربة ولد عبد الرحمان كاكي في مسرحية "ديوان القراقوز" ومسرحية "القراب والصالحين"، كابت ياسين في مسرحية "غبرة الفهامة" أو ضمن خطه الشعبي... ولا يزال المسرحيون عندنا في الجزائر يعاودون تجاربهم المسرحية توظيفا للتراث العربي بعامة والشعبي بخاصة شكلا ومضمونا في أعمالهم المسرحية... آخر هذه التجارب المسرحية مع التراث، جهود المسرحي ماحي صديق في استلهام وتوظيف الحكواتي أو القاص الشعبي في إبداعاته المسرحية الجديدة.

بعد سنوات من النضال المسرحي داخل فرقة "الكلمة" المسرحية، وملازمته الدائمة للفنان محمد شواط، رأى صديق ماحي أن التجريب في المسرح هو السبيل لتحقيق النموذج المسرحي أو محاولة البحث عن مسرحة التراث الشعبي وتقريبه إلى الجمهور في شكله الخام الأول، والسعي مرحليا إلى الارتقاء به مسرحيا... وعدم إخراجه من بيئته وطبيعته لأن ذلك قد يربك العملية ولا يؤدي إلى أي خطوة نحو ديمومته وتأصيله..فتصبح علاقتنا بهذا الموروث الشعبي علاقة مترددة لا هي استفادت من التراث وكنوزه ولا من الحداثة وقيمها المادية والروحية ولا على الاتصال ولا على الانفصال...

سعى ماحي صديق انطلاقا من التراث الشعبي إلى توظيف الحكاية الشعبية وضع نفسه وضع الراوي أو المداح (الحكواتي) وراح يقدم عروضه بالساحات الشعبية داخل المدينة.. وبالجامعة بالمدارس وحتى داخل بعض المؤسسات..يقول أن جمهوره تتراوح أعماره ما بين 09 إلى 99 سنة.

فالحكاية عند ماحي صديق تأخذ شكل العماد الرئيس بحيث هو عماد الكتابة الشعبية نفسها، وهو أسلوب الحوار القائم على الكلام وعلى أسلوب تجسيد الحكاية عيانيا من خلال سرد أحداثها... الراوي في كل ذلك هو التيمة المطلقة التي تشد جمهوره طوال العرض الفرجوي جامعا بين الإيماءة والفعل اللفظي، فالرواية أو الحكاية بناء مرن قابل للتعديل سواء في محتواه أو في شكله، إنه بناء يكون فيه للصمت والتوقف قيمة.

فالراوي هو القائم بأعباء السرد المسرحي ومحدد لحدود العالم الذي ستقوم فيه الحكاية، وشد انتباه المتلقي إلى وقائع الحكاية، والاستحواذ على انتباهه بخلق وضع درامي مهم في حد ذاته، يشير فيه توقع أوضاع قد تتطور عنه... فعروض ماحي صديق الشعبية كراوي ليست اختراعا حديثا أو اتجاها مبتدعا... هذا الفن الذي نبتت جذوره بفعل الارتواء من فيض العادات الشعبية ودقائق الحياة اليومية للمجتمع الذي اعتاد استخدام الأشكال السردية في محادثاته...

كما أن الشعبية هنا "تنبع من أن هدفها المرسوم مسبقا هو السرد مع الجميع –وفي الوقت نفسه مع جمهور معين– في كل الأماكن بمعنى أنه يروي لأهداف ومصالح الأغلبية –ليس إرضاء رغبات الأغلبية– التي يمكن أن تكون مشوهة دون أن يدركوا ذلك. وانطلاقا من هذا فإن عليه أن يعمل على تغيير أذواقهم وإثرائها بما هو ضروري..."[1]

ولعل الانجذاب نحو فن الحكاية الشعبية لدى المسرحي ماحي صديق أو نحو السرد المسرحي هو أنه يعتمد على البساطة وقوة الحقيقة...أو أنه يمثل حلقة اتصالية تقوم على آلية المجال المفتوح.

وإذا كانت المسرحية كفضاء مكاني وزماني أقل اتساعا من الواقع، فإن إقحام الحكاية في العملية المسرحية وإلباسها ثوب المسرحية، جعل الراوي أو الحكواتي (الحلايقي) ممثلا في الفنان ماحي صديق –أكثر حرية في تجسيد الظاهر والخفي من الحكاية الشعبية،والممكن والمحال لشخوصها وأحداثها وتحقيق الفرجة المسرحية المنشودة وقد يسميها البعض الاحتفاء أو الاحتفال بالجمهور، حيث نراه في نصه المسرحي "الطير ذو المنقار الاخضر" يستهل حكايته الشعبية بقوله: "كان يا ما كان في قديم الزمان الحبق والسيسان، عندما كان الإنسان والحيوان يعيشان في أمان وفي بلد من البلدان كان أحد بني الإنسان يعيش في خير وعافية ورزق كبير والدنيا عليه ربيع"[2]

وفي حكاية "الكنز المنسي" يتقمص الحكواتي (ماحي صديق) دور الصديق الذي تخلى عنه أصحابه ورفاقه عندما كان من الأعيان ذا مال كثير وجاه عظيم، نقتطف من هذه الحكاية بعض المقاطع منها: "أيها الزمان الغادر أين الرفاق أين الأصدقاء أين الخلان عندما كنت صاحب مال وجاه كان الناس من حولي وكانت الدنيا تزهو بي وها أنا اليوم فقير معدم لا مال ولا جاه ولا صولجان فأين هم الذين كانوا حولي يحضرون أفراحي ويأكلون طعامي". فالمتلقي أو الجمهور قد أعطى كل اهتمامه للقاص الشعبي أو الحكواتي ممثلا في الفنان ماحي صديق من خلال سرده لسير العظام والأبطال على اختلاف انتماءاتهم التاريخية، "فالملتقون هنا يتفاعلون مع الأبطال سلبا وإيجابا، وهذا التفاعل وليد التأثير الدرامي الكبير الذي تحدثه السير الشعبية في الملتقي بطريقة خاصة مختلفة عن طريقة المسرحية الأوروبية"3. وأعتقد أن بساطة العمل وعفويته أدت إلى استيعاب الجمهور وتقبله يضاف إلى ذلك أن هذا الفن نابع من تقاليد الإنسان العربي، "فالحلول الفنية لمسرح الحكواتي باهرة تقوم على استمداد تقاليد المسرح من تقاليد الشعب: الرواية ومعطيات الجماعة في اللقاء والتخاطب والتفكير وآلية الفعل ورد الفعل، أي استمداد حلول فنية من حياة الشعب وأساليب تواصله مع شؤونه المختلفة، وتأدية ذلك في سياق مسرحي ينشد الإقناع... ولكن المهم في هذه التجربة هو جرأتها الفائقة على تبسيط الممارسة المسرحية إلى مستوى حياة البسطاء"4 .

يتمتع الفنان ماحي صديق بقدرات فنية متعددة، فهو يحكي الحكاية أو يسرد أحداثها ويجسد أدوار بعض شخوصها معتمدا على تعابير وجهه وحركات يديه وجسده كله موظفا طبقات صوته...محاولا في ذلك أن يجتذب- اهتمام الجمهور وإمتاعهم..وفن القول عند ماحي صديق فن جزائري وعربي صرف. فقد جاء في الحكاية "فلما تأكد أنه وصل إلى المكان المقصود قال في قرارة نفسه هنا أرتاح وأتناول غذائي فقد لقيت من سفري هذا نصبا وبعد تناوله الطعام غرق في نوم عميق وما إن فتح عينيه حتى رأى طائرا جميلا بريش ذا ألوان زاهية ومنقار أخضر".

فالحكاية لديه حاجة ضرورية للعمل المسرحي ولبناء عالم من الرسومات الزاهية، تلونها تلك الفسيفساء من الأمثال والحكم الشعبية وتصبغها حركاته على الركح أو بمكان العرض بما اختزنه من معايير ومعطيات إبداعية.

قائمة المراجع و المصادر:

* - أستاذ محاضر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية.

[1] - فرانشيسكو دارثون فيبس، من مسرح أمريكا اللاتينية، مسرح السرد التمثيلي، ترجمة: سمير متولي، أكاديمية الفنون، مصر، ط 1996، ص 64.

2- اقتصر الاقتباس من النص الأصلي على ما كتب باللغة العربية الفصحى، لأن الفنان ماحي صديق يقدم أغلب حكاياته الشعبية بالغة العامية أو اللغة المحكية لتقريبها أكثر من عامة الجمهور.

3- علي عقلة عرسان، الظواهر المسرحية عند العرب، المنشأة العتمة للنشر والتوزيع، طرابلس الطبعة الثانية، 1983، ص 356.

4- د. عبد الله أبو هيف، المسرح العربي المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002، ص 357.